

فتح القدير

قوله : 31 - { ولو أن قرآنا سيرت به الجبال } قيل هذا متصل بقوله : { لولا أنزل عليه آية من ربه } وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة فأمره ﷺ سبحانه بأن يجب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله ﷺ سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد ومعنى سيرت به الجبال : أي بإنزاله وقراءته فسارت عن محال استقرارها { أو قطعت به الأرض } أي صدعت حتى صارت قطعاً متفرقة { أو كلم به الموتى } أي صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف في جواب لو ماذا هو ؟ فقال الفراء : هو محذوف وتقديره : لكان هذا القرآن وروي عنه أنه قال : إن الجواب لكفروا بالرحمن : أي لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن وقيل جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله { ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله } وقيل الجواب متقدم وفي الكلام تقديم وتأخير : أي وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره وكثيراً ما تحذف العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام ومنه قول امرئ القيس : .
(فلو أنها نفس تموت جميعاً ... ولكنها نفس تساقط أنفسا) .

أي لهان علي ذلك { بل الأمر جميعاً } أي لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما افترحوه من الآيات فالإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر ﷺ سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشئته ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : { أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً } قال الفراء : قال الكلبي أفلم ييأس بمعنى أفلم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح : وقيل هي لغة هوازن وبهذا قال جماعة من السلف قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة : أفلم يتبين ومن هذا قول رباح بن عدي : .

(ألم ييأس الأقباط أنني أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً) .

أي ألم يعلم وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري : .

(أقول لهم بالشعب إذ يأسروني ... ألم تيأسوا أنني ابن فارس زهدم) .

أي ألم تعلموا فمعنى الآية على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات وقيل إن الإيأس على معناه الحقيقي : أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعا في إيمانهم { ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة } هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص : أي لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسول قارعة : أي داهية تفجؤهم يقال قرعه الأمر إذا أصابه والجمع قوارع والأصل في القرع الضرب قال الشاعر :
(أفنى تلادي وما جمعت من نشب ... قرع القراقرير أفواه الأباريق) .

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جذب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل إن القارعة : النكبة وقيل الطلائع والسرايا ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك { أو تحل } أي القارعة { قريبا من دارهم } فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادهم وقيل إن الضمير في { تحل } للنبي A والمعنى : أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه A لأهل الطائف { حتى يأتي وعد الله } وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة وقيل المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار والأول أولى { إن الله لا يخلف الميعاد } فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة